أثر الالتزام الإيديولوجي واختلاف المكان على الشكل والمضمون في روايتين صهيونيتين من الخيال السياسي

عارف توفيق عطاري*

* حصل على ماجستير في التربية من الجامعة الأردنية عام ١٩٧٧ .
يعمل مدرساً في وزارة التربية والتعليم - قطر .

الملخص

يعتبر الأدب من المصادر الرئيسة المشروعة لدراسة الشعوب. وانطلاقا من هذه المقولة ومن الأهمية التي أولتها الحركة الصهيونية للأدب في تحقيق أهد افها، بدأ عدد من الباحثين العرب بمتابعة ودراسة النشاط الصهيوني على هذه الجبهة. وفي إطـار هذا الاهتمام تناولت هذه الدراسة روايتين صهيونيتين من الخيال السياسي: الأولى «الطريق إلى عين حارود» للكاتب الإسرائيلي «عاموس كينان» والثانية «اعتراض غزة» للكاتب الصهيوني الأمريكي «ي. هوارد هنت». وقد كان تأثير الالتزام الأيديولوجي لكل من الكاتبين من جهة، واختلاف المكان، من جهة أخرى، على معالجة الكاتبين للأحداث هو المحـور الـذي دارت حولـه الـدراسة، التي تتكون من ثلاثة أقسام رئيسة: معالجة الأحداث، وعرض الشخصيات، والأساليب الفنية. وقد سبق ذلك تقديم فكرة عن المقصود بالخيال السياسي، وكذلك تقديم ملخص للروايتين.

وقد تبين من خلال الدراسة وجود اختلاف بين الروايتين، ووجود نقاط التقاء أيضا على النحو التالي:

- تتحدث كل من الروايتين عن مأزق يواجه إسرائيل، ولكنه مأزق داخلي في «الطريق إلى عين حارود» يتمثل في استقطاب حاد في المجتمع الإسرائيلي يؤدي إلى انقلاب عسكري يميني يقابله تمرد للمعارضة في «عين حارود». أما في «اعتراض غزة» فالمأزق خارجي يتمثل في تعرض إسرائيل لخطر هجوم نووي عربي. وقد تطلب الخروج من المأزق في الرواية الأولى تعاونا عربيا يهوديا بينما تطلب في الثانية اعتمادا إسرائيليا على الذات القوية.
أما بخصوص المستقبل فإن «كينان» يحلم بسلام وتعايش عربي يهودي، حيث يتمتع الجانبان بنفس الحقوق، وخاصة أنهما يتحملان نفس القدر من المسئولية عن آلام الماضي. أما «هنت» فيحلم بانصهار سامي بين «اليهود المتقدمين» و«العرب المتخلفين».

- الشخصيات العربية في كلتا الروايتين سلبية، ولكن بينما يمكن العثور على شخصية «محمود» في الرواية الأولى في المجتمع العربي، دون تعميم، إلا أنه لا يمكن العثور على شخصية «بخارى» في الرواية الثانية، بسبب أوصافها العجيبة.
أما الشخصيات اليهودية، فهي مثالية معصومة في الرواية الثانية، قلقة محاصرة بالتساؤلات في الرواية الأولى.

- أمّا على الصعيد الفني فرواية «الطريق إلى عين حارود» أكثر تماسكا من الناحية الفنية وأقرب إلى الصدق الفني من الثانية. وبينما يعتمد «كينان» على الحوار والمونولوج (الحديث إلى الذات) والإدراك المؤخر والارتجاع الفني، كأساليب تعبير فإن «هنت» يلجأ إلى السرد والإطناب الذي يشتت الانتباه، أكثر من الأساليب الفنيّة الأخرى.
هذا وقـد استخدم كل من الكاتبين قدرا كبيرا من الأسماء والكلمات العربية والعبرية لإثبات الصدق. أما الراوي في الروايتين فهو أكثر وعيا وأشمل ثقافة من بقية الشخصيات.

مقدمة

الأدب هو أحد العناصر الرئيسة التي تكون وجدان الأمة ، ويساهم مع غيره من أدوات التشكيل الثقافي في صياغة شخصيتها القومية وبلورة هويتها الحضارية . كما يعتبر الأدب أحد المصادر الرئيسة المشروعة لدراسة الشعوب ، ذلك أن الأديب ، بشفافيته وقدرته على تطويع أساليب التعبير، أكثر قدرة من غيره على الولوج إلى التكوينات الباطنية للأفراد وتعريتها . لذلك اتجهت كثير من الدول لدراسة آداب الأمم الأخرى لتتعرف من خلالها على تكوينها النفسي والاجتماعي ، كما فعلت الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية عندما كلفت عددا من أساتذة الجامعات بدراسة المجتمع الياباني والنفسية اليابانية من خلال تحليل الإنتاج الأدبي الياباني . وفي إسرائيل مراكز بحوث متخصصة وأقسام جامعية لدراسة اللغة العربية وآدابها . في المقابل نجد الاهتمام العربي بدراسة الكيان الإسرائيلي من خلال آدابه ، ضئيلا إذا ما قورن بالاهتمام الإسرائيلي بالأدب العربي من جهة ، وبالاهتمام العربي نفسه بالجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية في إسرائيل ، مع أن الصراع على الجبهة السياسية والعسكرية إن هو إلا تعبير دموي متفجر عن الصراع الثقافي .

لذلك فإن ما بين أيدينا من دراسات عربية عن الأدب الصهيوني محدود للغاية . لقد كانت البداية على يد غسان كنفاني الذي كان له فضل الريادة عندما أصدر كتيب «في الأدب الصهيوني» عام ١٩٦٨ ، الذي نشره مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية . ثم أصدر الدكتور هاني الراهب دراسته ، وهي في الأصل أطروحة دكتوراه ، «الشخصية اليهودية في الرواية الإنجليزية» عام ١٩٧٤ . وقد صدرت عن مركز الأبحاث أيضا . ولكن الباحثيْن اقتصرا على تحليل القصة والرواية الصهيونية ، دون الشعر كما اقتصرا على القصص والروايات المنشورة بالإنجليزية . وقسم كبير منها نشر خارج فلسطين .

من الدراسات الجيدة أيضا كتاب الدكتور إبراهيم البحراوي «الأدب الصهيوني بين حربين» ، الذي درس فيه الأدب الصهيوني في فترة محدودة هي ١٩٦٧ - ١٩٧٣ . وقد درس الشعر إضافة إلى القصة . كما أن النصوص التي قام بتحليلها مكتوبة بالعبرية أصلا ومنشورة في فلسطين المحتلة . وبذلك يكون قد تميز عن كنفاني والراهب . وقد تابع الدكتور البحراوي وهو أستاذ الأدب العبري في جامعة عين شمس ، دراساته حول الأدب الصهيوني ونشر أكثر من مقال حول الموضوع .

وهناك عدد من الدراسات الأدبية المفيدة في هذا الميدان ومنها مثلا :

- نماذج من الرواية الإسرائيلية المعاصرة ، لمؤلفه معين بسيسو، نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م .
- الاستيطان اليهودي في الأدب الصهيوني ، لمؤلفه عبد الوهاب محمود وهب الله ، نشر دار الكلمة للنشر ، بيروت ١٩٨٢م .
- الأدب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع ، لمؤلفه جودت السعد ، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١م .

- الأدب الصهيوني المعاصر، لمؤلفه الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي، نشر قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، بمعهد الأبحاث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مصر ١٩٧٢م .
- أضواء على الأدب العبري الحديث، لمؤلفته الدكتورة نازك عبد الفتاح، نشر مكتبة القاهرة الحديثة .
- نماذج من الأدب الإسرائيلي، ترجمة عبد المنعم سليم، نشر دار الموقف العربي بالقاهرة .
- الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث لمؤلفه غانم مزعل، منشورات الأسوار، عكا ١٩٨٥م وقد أعادت دار الجليل في الأردن نشره عام ١٩٨٦م .

وكانت مجلة الأقلام العراقية قد خصصت عدد حزيران ١٩٧٩م للأدب الصهيوني، وقد ضم العدد مجموعة متنوعة من الدراسات لعدد من الباحثين، فجاء مرجعا ثريا في هذا الميدان .

هذا وقد قام الباحث، كاتب هذه السطور بترجمة كتاب : (العرب في النثر العبري) The Arab in Hebrew Prose للدكتورة «ريزاد ومب» الأستاذة في جامعة كمبردج ونشرته بالعربية دار الجليل في الأردن عام ١٩٨٥م. وقد تناولت الباحثة بالتحليل عددا من القصص التي كتبها كتاب يهود باللغة العبرية في الفترة ما بين ١٩١١ ـ ١٩٤٨ . إضافة إلى ذلك، فهناك دراسات متفرقة في عدد من المجلات والدوريات العربية، إضافة إلى فصول عن الأدب الصهيوني ضمن كتب أكثر شمولا .

في إطار متابعتنا ورصدنا للإنتاج الأدبي الصهيوني، نقدم هذه الدراسة عن روايتين من الخيال السياسي الصهيوني، الأولى بعنوان «الطريق إلى عين حارود» للكاتب الإسرائيلي «آموس كينان» أحد الصحفيين البارزين في إسرائيل ومن أعضاء حركة السلام الآن، والثانية «اعتراض غزة» : «The Gaza Intercept» للكاتب الصهيوني «ي. هوارد هنت» وهو روائي أمريكي عمل مراسلا لمجة «تايم» ومجلة «لايف» .

ويتوقع الباحث أن يساعد عرض الروايتين معا على رؤية ما بينهما من اختلاف في معالجة قضايا الصراع العربي الإسرائيلي، وتقديم الشخصيات، إضافة إلى الجوانب الفنية. ويستند الباحث في اعتقاده هذا إلى افتراضين :

- الأول أن للانتماء العقائدي أو الالتزام الآيديولوجي للكاتب **تأثيراً على إنتاجه**.
- الثاني أن لاختلاف المكان تأثيره أيضا على الكاتب .

وينبني الافتراض الأول على الاعتقاد بأن الرواية أصلا إن هي إلا وسيلة للتعبير عما يريد الكاتب التعبير عنه، أو إطار لتصوير ما يرغب في تصويره. ولذلك لا بد أن تعكس الالتزام الفكري للكاتب والخط الذي يؤمن به. والمعروف أن «كينان» هو من أعضاء «حركة السلام الآن»، ويعتبر متقدما على

كثير من الكتّاب الصهاينة فيما يتعلق بالحقوق الفلسطينية ومستقبل الصراع العربي الصهيوني، حتى أن بعض الباحثين اعتبروه خارج الاجماع الصهيوني (Gover, 1986, Vol. XV1, No.1,56-80) . أما «هنت» فمعروف بمواقفه المؤيدة لإسرائيل وتجاهله للحقوق الفلسطينية .

أما الافتراض الثاني فينبني على الاعتقاد بأن قرب الكاتب من الأحداث يضطره إلى الالتزام بالحد الأدنى من الموضوعية، وكما أشار إلى ذلك غسان كنفاني (كنفاني، ١٩٦٧ : ٩٩) :

> الكاتب اليهودي إن كان قريبا من الأحداث بالمعنى العقلي والجسدي فإنه لا يفقد موضوعيته بالقدر الذي يفقدها كاتب صهيوني يتناول الأحداث من بعيد. لذلك سنلاحظ دوما بعدا عن الموضوعية كلما ابتعد الكاتب عن الأحداث وبعدا أقل كلما اقترب منها .

لذلك نتوقع أن يكون «كينان» أكثر موضوعية من «هنت» لأن الأول لا يستطيع الانسلاخ عن الواقع تماما، وذلك للإبقاء على درجة معقولة من الصدق على الأقل. ولكن ستبقى هناك نقاط التقاء بين الكاتبين لأنهما، رغم اختلافهما، يبقيان في دائرة الالتزام بالرؤية الصهيونية .

على أي حال فإن مناقشة صحة هذه الفرضيات تقتضي مقارنة بين الروايتين من حيث: معالجتهما للأحداث، وعرض الشخصيات، والجوانب الفنية .

وسوف تكون هذه النقاط الثلاث هي المحاور الرئيسة لهذه الدراسة. ولكن قبل ذلك سوف نقدم فكرة عن المقصود بالخيال السياسي، كما سنقدم خلاصة للروايتين .

الخيال السياسي

الرواية، كما يعرفها النقاد هي «سرد خيالي نثري ذو طول معقول» أو «قصة خيالية نثرية ذات اتساع فني يتراوح من كاتب لآخر» أو «حكاية خيالية ذات اتساع معين مكتوبة بأسلوب سردي» (حنورة ، ١٩٧٨ : ٣١) . ويلاحظ من هذه التعريفات المتقاربة أن الخيال هو أحد الأركان الرئيسة للرواية. ولكن يجب التأكيد على أن الخيال ليس انفلاتا مطلقا من الواقع، فالخيال المبدع يظل متمسكا ببعض القيود، وفي مقدمتها ارتباطه بالواقع وما يدور فيه من أحداث، فالروائي حين يستخدم خياله «لا يودع عالمه الذي يعيش فيه، بل يضع نفسه في سياق جديد ليس مصنوعا كله. . . يستكشفه ويمهده عساه يصل من خلاله إلى الموقع الذي يلتقي فيه بهدفه» (حنورة، ١٩٧٨) . وهذا يعني أن يكون الخيال هادفا، مما يستدعي بدوره أن يكون الكاتب على وعي عميق بحاجات مجتمعه وتوق أفراده نحو حياة أفضل .

وهناك أكثر من تصنيف للروايات، منها الترفيهية، والتاريخية والرومانسية والواقعية التسجيلية والواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية والوجودية والتعليمية ورواية الخيال العلمي .

كما أن هناك نوعا من الروايات يعرف باسم رواية الخيال السياسي Political thriller وهي غير الرواية السياسية إذ أنها لا تؤرخ أو تحلل مرحلة تاريخية سابقة أو حاضرة، بل تضع سيناريو المرحلة القادمة وتساعد على التنبؤ بما قد يحمله المستقبل. وقد يكون الهدف من ورائها تهيئة الرأي العام لتقبل حل سياسي معين أو فكرة سياسية معينة.

والخيال السياسي ليس انفصالا نهائيا عن الواقع السياسي، بل هو اهتمام بالواقع السياسي ومحاولة لإخصابه وإثرائه لأنه يتم أصلا بإرادة الكاتب، في مسعى منه ليحل بالخيال مشكلة مستعصية. وفي هذه الحالة لا بد أن تشكل المعطيات السياسية الراهنة والتراكمات السابقة الأرضية التي ينطلق منها الكاتب.

إذا طبقنا هذا المفهوم على الروايتين، موضوع هذه الدراسة، فإننا نجد أن رواية «كينان» «الطريق إلى عين حارود»، تتنبأ بانقلاب عسكري في إسرائيل. وهذا التنبؤ ليس خيالا عشوائيا بل يستند إلى معطيات في الواقع السياسي الإسرائيلي. وقد استأثر، أي احتمال وقوع انقلاب عسكري في إسرائيل، باهتمام الباحثين والمحللين السياسيين في السنوات الماضية. وقد وضع هؤلاء أكثر من (سيناريو) لمثل هذا التطور المحتمل، الذي يحدث عندما تصل الأوضاع في الكيان الإسرائيلي درجة من التأزم الذي يستعصي على الحل. وهكذا فإن «كينان» لم يفعل سوى أن وضع هذا (السيناريو) في قالب روائي، وعالج خلاله قضايا أخرى متعلقة به مثل العلاقة بين العرب واليهود، والآفاق التي يمكن أن تصل إليها.

أما «هنت» فقد تنبأ بتطور آخر وهو احتمال تعرض إسرائيل لهجوم نووي عربي. وهذا التطور ليس خيالا مطلقا، على الأقل من وجهة النظر الصهيونية. وهذا الاحتمال يثير قلق إسرائيل. ولا أدل على ذلك من استباقها الأمور بضرب المفاعل النووي العراقي، وقبل ذلك اغتيال عالم الذرة العربي يحيى المشد، والضجة التي أثارتها مؤخرا حول الصواريخ السعودية الصينية الصنع. باختصار فإن القدرات النووية العربية وإمكانات تطورها هي موضع اهتمام القيادة الإسرائيلية التي تسعى، ما أمكن، لاحتكار (تكنولوجيا) الذرة. وهكذا فإن ما قام به «هنت» هو أن وضع في قالب روائي (سيناريو) الهجوم النووي العربي كما يفعل المحللون السياسيون والعسكريون الإسرائيليون بطريقتهم الخاصة.

ملخص الروايتين

الطريق إلى عين حارود[1]

خلاصة الرواية أن انقلابا يقع في إسرائيل، يفرض في أعقابه نظام بوليسي على تل أبيب فيما تستقطب «عين حارود» عناصر المعارضة، وتبدأ إذاعتها «الحرة» البث مشجعة المعارضين على الالتحاق بها، بينما تعتم وسائل الإعلام الرسمية على ذلك.

يقرر الراوي الانضمام إلى عين حارود التي تشكل بؤرة الأمل. الطريق إلى عين حارود ليس

قصيرا ولا طويلاً. ولكن بسبب النظام البوليسي الذي فرضه الانقلاب العسكري، فقد يستغرق الطريق أسبوعا، إذ أن المنطقة محاصرة، وحواجز الجيش «تقتل ثم تسأل» وتطلق النار على كل من يقترب «حتى على أولئك الذين يحاولون إثبات براءتهم باصطحاب عائلاتهم» . . . . . حتى أن الموالين لم يتجرأوا على السفر بسياراتهم الخاصة، وكان عليهم أن يسيروا في قوافل تخضع لتفتيش دقيق (ص ١٤) . كان على الراوي أن لا يسلك طريق البر أو القطار وألا يظهر قرب شارع عام. وكان البحر هو السبيل الوحيد، رغم أن القوارب والدوريات كانت «تحرثه جيئة وذهابا». وقد صممت خطة الراوي للوصول إلى «عين حارود» على أساس العثور على عربي يدله على الطريق. وبدون ذلك لا يمكن الوصول. وبالفعل يلتقي الراوي العربي «محمود» الذي كان يسعى هو الآخر للخروج من المأزق، ولكن بعكس الراوي، الذي كان يعرف إلى أين يتجه، لم يكن محمود يعرف وجهته، «في لحظة لا بد منها التقت عينانا. كان محمود يخوض أولى معاركه وكنت أخوض آخرها» (ص ٢٤) .

بعد لحظات سيطر فيها التردد وعدم الثقة والعناد من جانب محمود فأجبره الراوي على السير معه والتعاون للخروج من هذه «الجهنم ، قبل أن يقتلونا معا، ثم بعدها نفكر من سيقتل من» (ص ٢٥) .

ترسخت الثقة بين الاثنين رويدا رويدا ، إلى أن وصل الأمر بهما معا إلى اختطاف سيارة عسكرية على الطريق، وقتل سائقها، ثم بواسطتها اقتحما ثكنة عسكرية، وأوقعا سيارة (جنرال) في مصيدة فقيّداه مع سائقه واختطفاه، فأخذت القوات العسكرية الإسرائيلية تطاردهما وتتفاوض معهما عبر مكبرات الصوت إلى أن استسلما. قتل الجنود محمود و (الجنرال) المختطف، الذي كانت وحدته بدورها قد تمردت، والسائق.

اصطحب (الجنرال)، الذي قاد عملية المطاردة، (وهو قائد المنطقة الشمالية) الراوي إلى مركز قيادة عسكري مليء بالأزرار التي يؤدي الضغط عليها إلى إطلاق صواريخ موجهة إلى عدة أماكن في العالم! . وهنا يقرر الراوي ألا سبيل لتفادي الكارثة إلا بقتل هذا (الجنرال) المجنون، وتدمير الأزرار. لقد فكر ووجد نقطة ضعف (الجنرال) في قصبته الهوائية. ضربه عليها فمات. ثم أطلق النار على كل الشاشات، وانطلق مع «ليورا» الفتاة التي أرسلها الجيش لتتفاوض معه أثناء عملية المطاردة، انطلق معها إلى عين حارود . ولكن «ليورا» تقتل بدورها ليصل الراوي وحده إلى عين حارود، إلا أنه لم يجد أحدا رغم أنه كان متأكدا من المكان «لم أر أحدا ولا أدري إن كنت أعمى، لم أسمع صوتا ولا أدري إن كنت أصم، إلا أنني كنت سعيداً لأنني أخيرا وصلت إلى عين حارود» (ص ١١٣) .

رواية «اعتراض غزة» The Gaza Intercept

ملخص هذه الرواية أن مجموعة فدائية فلسطينية منشقة ومتطرفة تدعى «الكرمل» تخطط لتنفيذ عملية تثير العالم، وذلك بقصف تل أبيب في عيد إقامة الدولة العبرية ١٥/٥ ، بقنابل النيوترون . يقوم زعيم المجموعة حسين البخارى بسرقة مليون دولار من بنك «ليئومي» الإسرائيلي في نيويورك ويقدمها رشوة لأحد موظفي البنتاجون ، الذي تصادف أنه كان بحاجة للمال ليعالج زوجه المريضة

بالسرطان، في مقابل أن يقدم له هذا الموظف نسخة عن خارطة مواقع تخزين القنابل النيوترونية الأمريكية في أوروبا .

كان بخارى قد جنَّد من قبل عالما ذريا ألمانيا ممن سبق لهم العمل في مصر، وجنَّد معه كذلك مجموعة من الكوبيين. وبالفعل استطاعت المجموعة سرقة ثلاث قنابل نيوترونية من بلجيكا، واتجهت بها نحو ميناء مرسيليا الفرنسي ثم الجزائر ثم لبنان ثم فلسطين المحتلة من جهة غزة ، وكادت تنفذ هدفها .

في هذه الأثناء كانت (الموساد) المخابرات الإسرائيلية ، تتابع حسين البخارى. كما كانت قد جندت اليهودي الأمريكي «جاي بلاك» واسمه الأصلي جاكوب شوارتز للعمل معها، وهو بطل الرواية الحقيقي. ووالد «بلاك» من المؤيدين لإسرائيل وممن قاتلوا في صفوفها وعملوا في خدمتها عبر جهاز الموساد. كان «بلاك» مثالا لرجل الأعمال الأمريكي الناجح: يمتلك مؤسسة إعلانات ولديه منزلان ويخت. . . . . ولكنه يقبل التطوع في الموساد لخدمة إسرائيل.

تكلف الموساد «بلاك» بالسفر إلى الدانمارك لمقابلة «جيرننغهام» الذي كان يصدر نشرة معلومات محدودة التوزيع ، يعتمد، فيها على مصادره الخاصة. وكان قد توقع سلفا مقتل الثري العربي «أحمد» في باريس على يد مجموعة «بخارى» مما جعل الموساد تجزم بأن لديه مصادر خاصة. وأن إقامة علاقة معه تمكنها من متابعة نشاطات «الكرمل» وغيرها من المنظمات الفلسطينية. لذلك أرسلت «بلاك» إليه بصفته صاحب دار إعلانات، ليعرض عليه شراء حق توزيع النشرة بعد زيادة أعدادها مع استمراره في الاشراف على تحريرها. وقد عرض عليه نصف مليون جنيه استرليني مقابل ذلك .

في الدانمارك التقى «بلاك» بـ «ريبا مزراحي» سكرتيرة «جيرننغهام» . وهي كما وصفت نفسها «ليست عربية ولا يهودية ولا بربرية ولا دانمركية ولا تعرف كيف تصنف نفسها» . هي يهودية الدم (الأب) عربية الأم ، عاشت في فلسطين وتغذت على طعام وكالة الغوث ، لم تدرس القرآن ولا التوراة. يقع «بلاك» في حبها ، وتوهمه أنها تعمل في الموساد، ولكن يتبين فيما بعد أنها تعمل مع منظمة فلسطينية أخرى معارضة لمنظمة «الكرمل» . وأن اسمها الحقيقي **«نورا فراج»** وليس «ريبا مزراحي». وبسبب هذا التمويه كادت تقضي على «بلاك» .

بعد أن توقع «جيرننغهام» مقتل الثري العربي على يد «حسين بخارى» وَصَدق توقعه، قامت المخابرات الإسرائيلية (الموساد) بمتابعة بخارى الذي تنكر في زي رجل أعمال جزائري من وهران ، ثم في زي ديبلوماسي في إحدى السفارات العربية لدى الأمم المتحدة. وهناك اتخذ اسم «صلاح الدين» . وقد راقبت الموساد تحركاته هناك ورصدتها عن طريق خادمة يهودية تعمل في شقته. وقد أخبرتهم الخادمة (ظافرة كوهين) ذات يوم أن بخارى سوف يغادر إلى أوروبا ، فتابعته المخابرات الإسرائيلية ، ولكنها افتقدت أي أثر له هناك .

في هذه الأثناء حصل «جاي بلاك» على معلومة هامة من «ريبا» تتعلق بكيفية حصول «جيرننغهام» على المعلومات الخاصة التي قادته إلى أن يتوقع مقتل «أحمد» على يد «بخارى». وقد فهم منها أن فتاة عربية تدرس في باريس وتدعى «عتيقة» هي التي زودته بالمعلومات . وتبين فيما بعد أن «عتيقة» هذه هي أخت غير شقيقة لـ «نورا» أو «ريبا»، وأنها من العناصر العربية النشطة سياسيا .

يمرر «بلاك» هذه المعلومات إلى رؤسائه في الموساد ، الذين يرصدون تحركات «عتيقة» إلى أن يلقوا القبض عليها في شقتها ويختطفوها ويمارسوا معها كل أساليب المخابرات (القذرة) ولكنهم يفشلون في انتزاع اعتراف منها يتعلق بحسين بخارى، الذي يكون قد سرق القنابل النيوترونية من قاعدة لحلف الأطلسي في بلجيكا . ولكن الموساد تعثر في مداهمة أخرى على شاب آخر في شقة عتيقة ، يعترف بعد التعذيب عن مكان بخارى. ومع ذلك تخفق الموساد في اقتفاء أثره .

عندما تعلم الحكومة الإسرائيلية بأن قنابل نيوترونية قد اختفت من قاعدة أمريكية في بلجيكا ، تضع في اعتبارها أن منظمة فلسطينية قد سرقت تلك القنابل لتستخدمها ضد إسرائيل، فيتفق رئيس الوزراء مع وزير الدفاع على أنه في حالة حدوث هجوم من هذا النوع، تقوم الطائرات الاسرائيلية بقصف العواصم العربية بالقنابل الذرية .

تعلم الحكومة الأمريكية بذلك، ويدخل المسئولون الأمريكيون في جدل حول مواجهة الموقف، يتقرر بعده منع إسرائيل من تنفيذ هذه العملية بالقوة، إذا قررت القيام بها ، خوفا من مواجهة عسكرية عالمية شاملة .

تدخل الموساد في السباق مع الزمن ، لتتعقب بخارى ومجموعته الذين يصلون إلى غزة ، بينما تكون الموساد قد توقعت العثور عليهم في جنوب لبنان، وقامت بأكثر من عملية مداهمة هناك دون جدوى. كذلك تقوم «نورا» ومجموعتها المناهضة لـ «بخارى»بتعقبه ، في إطار الصراع بين الفصائل الفلسطينية ، لأنه لو نفذ عمليته لأصبح الزعيم الفلسطيني بل العربي الأوحد .

وأخيرا يقود بخارى نفسه الموساد إلى تحديد مكانه عندما أجرى اتصالا لاسلكيا من منطقة غزة مع الخارج ، فحاصرته القوات الإسرائيلية وقضت على مجموعته .

معالجة الأحداث

في كلتا الروايتين تواجه إسرائيل مأزقا، ولكنه مأزق داخلي في «الطريق إلى عين حارود» بينما هو مأزق خارجي في «اعتراض غزة» .

يعتقد «كينان» أن إسرائيل تقود اليهود إلى طريق مسدود ، وأن القوات العسكرية قد فشلت في حل المشكلة . «حصلنا على النار والدم ، ولكن لم نحصل على الحرية» . وقد عبر الراوي عن ذلك أيضا في هذا (المونولوج) « . . . لقد حررت جبلا **إثر** جبل ، ووديا **إثر واد** . بسيفي سددت الضربات

يمينا وشمالا ، وما شعرت بأسى أو عاطفة . . . دائما إلى الأمام . . . وبقيت وحدى فارغا أجوفا مثل مسدس «جيكوف» في نهاية المشهد الأخير» (ص ٨٦) .

وفي الحوار التالي بين الراوي و (الجنرال) ، يرد الحديث عن إخفاق التوسع العسكري والاستيطان في حسم المشكلة، حيث يقرأ (الجنرال) على الراوي النص التالي لأحد المنظرين العسكريين، وهو نص يفيض بالدلالات :

(قبل «هلاميش» كانت الجيوش تعمل وفقا لمبدأ البقرة الميتة. يأتي المستوطنون في البداية ويحرثون الحقول. يأتي العدو ليلا فيحرق الحقول. وفي الصباح يجدون بقرة ميتة في الحقل. تعلن الحرب. تفتح أرض جديدة، وتبنى مستوطنة جديدة. يأتي العدو ليلا. . . . ويتكرر المشهد، إلى أن جاء «هلاميش» صاحب استراتيجية «الحصان الأعور» والتي تعرف أيضا باللولب. بدلا من التقدم إلى الأمام، نتحرك إلى الجوانب، وهو صاحب صرخة «إلى الأمام في دائرة» حسنا. ولكن المشكلة أن اللولب إما أن يرتد إلى الوسط، أو يتوسع إلى ما لا نهاية. إذا ارتددت إلى الوسط. . . نفسك. وإذا ظللت تتوسع وتفتح العالم فمن الصعب أن نقول إنك تتحرك من البداية إلى النهاية أو من النهاية إلى البداية وهذا ما حدث مع المسكين «هلاميش» الذي أراد فتح طبرق. وعندما أشعل فيها النار اكتشف أنه يحرق تل أبيب بيديه. عندها وضع الرصاصة في رأسه) (ص ١٠٥) .

والنص واضح في إشارته إلى المأزق الإسرائيلي، فإذا تراجعت إسرائيل عن التوسع تكون بداية النهاية لها، وإن استمرت في التوسع فسوف تحرق نفسها بيديها، فتكون وكأنها انتحرت بإطلاق الرصاص على نفسها .

والحقيقة أن مثل هذا القلق من الطريق المسدود الذي تقود إسرائيل اليهود إليه، والقلق من عدم القدرة على حسم المسألة بالقوة، وتأثير ذلك على نفسية الإسرائيليين، كثيرا ما يتردد في الأدب الصهيوني. وقد كانت الكاتبة «يائيل دايان» من أوائل الكتاب الإسرائيليين الذين تعرضوا لذلك، ففي روايتها «كان للموت ابنان» قالت تصف مشاعر أحد الجنود :

«بعد موت اثنين من رفاقه في الجيش ولدى مشاهدته الموت فك قنابله بصورة آلية ورماها في الكهوف . . . ورغم أن النصر في سيناء يريحه من توتره الدائم، فإنه يشعر بخواء وتفاهة ذلك النصر. . . والذي زاده تعبا ليس الطريق الذي قطعه وإنما انعدام طريق جديد» (بهاء الدين، ١٩٦٥ : ٨٦ ـ ٨٩) .

أما في «اعتراض غزة» فالمأزق خارجي، إذ أن إسرائيل تتعرض إلى خطر هجوم نووي عربي وشيك، في ذكرى قيام الدولة اليهودية، ويزيد من حدة المأزق تواطؤ دولي أمريكي سوفياتي . فعندما علمت الإدارة الأمريكية بسرقة القنابل النووية قال وزير خارجيتها، أثناء مناقشة الأمر «إذا كانت إسرائيل فقط هي المقصودة بالسرقة فلا داعي للاهتمام . . .»

أفضل سياسة في ظل الظروف الراهنة هي عدم التدخل. ولكن وزير الدفاع الأمريكي كان يخشى أن تضرب إسرائيل، بقنابلها الذرية، العواصم العربية، فيرد السوفيت بضرب إسرائيل «وهنا يحتمل أن تتدخل. ويعقب الراوي على ذلك «هكذا تثبت الحكومة الأمريكية نفاقها وتترك إسرائيل وحدها تواجه الهجوم»، بل إنها تقرر إسقاط الطائرات الإسرائيلية التي ستنتقم من العرب «عملاء السوفيات». والناطق بلسان البيت الأبيض يبرىء العرب من مسئولية ما تقوم به جماعة إرهابية : «من الصعب أن نصدق أننا نسمح لأنفسنا بالانزلاق إلى ما يشبه المواجهة مع السوفيات بسبب ما تقوم به عصابة عربية إرهابية». ويؤيد ذلك الموقف الرئيس الأمريكي نفسه : «هل نسمح لإسرائيل بالانتقام من العرب بسبب هجوم يقوم به إرهابيون لا يتحمل العرب مسئوليتهم؟» (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣) .

اما نائب الرئيس الأمريكي فيقول «إذا كان الخيار بين أن نسقط الطائرات الإسرائيلية التي ستقصف المدن العربية أو ننزلق في مواجهة مع السوفييت، فلا مجال إلا الخيار الأول، لأن مصالح الولايات المتحدة هي الأساس» (ص ٢٨٠) .

أما الخروج من المأزق في «الطريق إلى عين حارود» فيتطلب تعاونا عربيا يهودياً. ولا مخرج بدون ذلك. لذلك كان على الراوي أن يعثر على «محمود» ليوصله إلى «عين حارود» وبدون ذلك تفشل الخطة .

إن استمرار الصراع بين الطرفين طبقا للرواية الأولى، معناه «فناؤهما معا» كما ورد في هذا (المونولوج) :

«**الطحالب والفطريات يتغذى بعضها على بعض**، كل يعطي الآخر ما يريد، ويأخذ منه ما يحتاج ولكن ماذا لو قررا أن يتقاتلا حتى الموت على الامتلاك الفردي للحجر نفسه، الذي يعيش عليه كلاهما؟ الحجر وحده سيبقى» (ص ٧٦) .

أما الخروج من المأزق في «اعتراض غزة» فيتطلب اعتماد إسرائيل على نفسها بعد أن خذلتها الولايات المتحدة «الأمريكان جعلوا أنفسهم أوصياء على مصيرنا رغم أنهم لا يضمنون بقاءنا يوما واحدا» (ص ٢٨٠) .

وقد تطلب ذلك استعدادا عسكريا إسرائيلياً لإحباط الهجوم العربي أولا، وفي حالة حدوثه يجري الانتقام بقصف العواصم العربية بالقنابل النووية، على قاعدة «شمشون» القديمة «عليَّ وعلى أعدائي» . الحل إذاً إسرائيلي عسكري تقليدي .

أما عن المستقبل فيحلم راوي «الطريق إلى عين حارود» بصيف بلا دماء. اذهب مع محمود إلى الكرم ليحمل أحدنا عودا والآخر غيتارا ، نستلقي على ظهورنا تحت الكرمة . . . نشعر أن البلد لنا معا . قرية محمود قريتي، وتل أبيب بلده» (ص ٩١) .

ويحلم راوي «اعتراض غزة» هو الآخر، بأن يدرك أحفاده «انصهارا ساميا في زمنهم» (ص ٢٢٢) وهذا الحلم من بين النقاط القليلة التي تلتقي عندها الروايتان .

ولكن الخروج من المأزق والحلم بالمستقبل، على هذا النحو، يتطلب معالجة للماضي، الذي شهد مواجهة دموية بين العرب واليهود. فكيف يمكن تجاوز مآسي الماضي الذي ما زال ممتدا في الحاضر؟

لقد كانت وسيلة «كينان» إلى ذلك الموازنة بين آلام الطرفين وحقوقهما، ومسئوليتهما عما جرى في الماضي. ويبادر على لسان الراوي إلى الاعتراف بذنب اليهود:

«أنا أحد الذين شاركوا في تهجير العرب، فكيف يمكن أن أبحث عن دليل يقودني إلى عين حارود؟ أنا وشالتيل ودافيد وآخرون طردناهم، فماذا يمكن أن أقول لهم (لـ «محسن ومحمود وعلي) حتى يخرجوني من هنا؟» (ص ١٥) .

ويعترف لـ «محمود» مباشرة فيسأله «هل تعرف من طردك؟ أنا» فيسأله محمود «لماذا تخبرني بذلك» فيجيبه «لأقول الحقيقة» (ص ٥٠) .

ويرد هذا الاعتراف مرة أخرى على لسان (الجنرال) والراوي، عندما يقترح الأول على الثاني قتل «محمود» خاصة «وأنه يبدو أنك قتلت عربيين أو أكثر في حياتك». فيجيبه الراوي «جميعنا اشتركنا في قتل الأطفال». ويستغرق في هذه المناجاة: «في الطريق لم ألمح عربيا. قرية إثر قرية. لا شيء سوى الأعشاب والحمير والماعز. تذكرت القرى التي حيتنا عندما اجتحنا «وهب». . . . تذكرت أنه كانت هناك لحظة ضعف قد مرت. وقد عدت مجنونا ثانية ولدي القدرة على القتل» (ص ٨٥) .

هذا الاعتراف ممزوجا بشعور بالذنب ، كثيرا ما يتردد في الروايات الصهيونية وبخاصة تلك التي كتبها جيل «الصابرا» (المولود في فلسطين المحتلة) أو جيل ما بعد إقامة الدولة. نقل هاني الراهب عن «دافيد سبانيز» قوله : «في أعماق الثقة الإسرائيلية بالنفس يثوي إحساس عريق بالذنب يشعر به كثير من الإسرائيليين تجاه العرب»(الراهب، ١٩٧٤ : ١٤٨).

وهذا الاعتراف والإحساس بالذنب الذي يتكرر في الروايات الصهيونية يقصد به التطهر وتخفيف وقع الجريمة، وإبقائها ضمن المعقول الإنساني. ولكن من الخطأ المبالغة في تفسيرها، على الصعيد العربي، باستخلاص نتائج مرغوب فيها، ذلك أن هذا القلق النفسي لا يزال خاليا من توجه يناقض الاتجاه الصهيوني السائد، والإيمان القدري بـ (لا خيار) وهي العبارة التي تتردد كثيرا في «الطريق إلى عين حارود» .

على صعيد آخر يخفف الراوي من وقع الشعور بالذنب، فيبحث عن مبررات السلوك الصهيوني. إنه لا يفعل ذلك بتكرار معزوفة المذابح الهتلرية، كما اعتاد الكتّاب الصهاينة في الخارج أن

يفعلوا ، وذلك لأنها لم تعد مقنعة. لذلك فهو يقدم مبررا آخر وهو أن العرب لم يكونوا هم الضحية وحدهم، ولو استطاعوا لفعلوا باليهود مثلما فعل اليهود بهم، ففي أول حوار يدور بين الراوي ومحمود، يسأله الراوي: ماذا إلى الغرب ؟
محمود: البحر حيث سنطردكم جميعا .

وفي محاولة لإقناع محمود بأن الراوي ليس من «الجميع» إلا أنه يصرّ «جميعكم يعني جميعكم» . فيسأله الراوي : «هل ترغب في قتلي»؟ «نعم بالتأكيد» (ص ٢٤) .

وفي موقع آخر يستغرق الراوي في هذه المناجاة :

«عندما سألت راشد لدى سيرنا على الطريق نفسه : لماذا لم يذرف دمعة على ابني المذبوح بل على ابنه فقط، لم يجد جوابا. ولقد وجدت الجواب بعد سنوات، قلت لنفسي: إن أكبر عقوبة نوقعها على من نضطهدهم أن ننكر عليهم حتى إمكانية الإحساس بالظلم الذي يقع على الآخرين . أن نقودهم إلى ظلم غيرهم ونحرمهم من إدراك ذلك» (ص ٣٨). ويستمر في مناجاته متسائلا «أي منا نحن الذين اخترنا حمل السلاح لم يقتل أناسا طيبين؟» وفي المستوى نفسه يورد الكاتب مبررا آخر، وهو أن العرب مذنبون لأنهم رفضوا التعايش مع اليهود. كما يظهر في الحوار التالي :
الراوي: لنا الحق في مكان .
محمود: مكاننا ؟
الراوي: إلى جانبكم.
محمود: لا حل مثل ذلك في الواقع. الحل إما. . . . أو . . . (ص ٥٠).

ويستغرب الراوي كيف أنكره «محمود» حقه في هذه الأرض مكررا مقولة الحقوق التاريخية :

«عندما يغني محمود عن بلده فهو يغني عن بلده التي ليست بلدي. نظرت إلى الأرض: لا مكان لي في أرض محمود ، كأنها لم تكن أرض قبور أجدادي ولم أكن موجودا فيها. في أرض محمود لا إرث لي ولا ورقة عشب. لم يغن عن شهدائي ولا عن ثواري. . . كأن لم يكن أبنائي الذين بكوا هنا. . . «جيرميا» الذي قال : يا أماه لم ولدتني . و «عاموس» الذي عاش بين رعيان «تيكواه» وتنبأ بجرائم إسرائيل الثلاث. لم يحفر أجدادي أسماء الشهور الاثنى عشر على الحجارة لم يكن أجدادي الذين شقوا الطرقات في سفوح الجبال وعاشوا بسلام، كل تحت كرمته وشجرة تينه. لم يكونوا هم الذين جاءوا بالفواكه من تربتهم إلى معبد الله. كأنهم لم يذهبوا إلى كرومهم في الصباح ليروا إذا كان العنب قد تبرعم والرمان قد أزهر» (ص ٨٨) .

في مقابل ذلك، يقبل الراوي ان يشاطر محمود الأرض. . «هذه الأرض لك أيضا يا محمود». ويتساءل عما إذا كان ممكنا تأدية الأغنية (أغنية محمود) معا «وربما لو تفحصنا الأمور جيدا نجد أنها الأغنية نفسها التي يغنيها كلانا» (ص ٩٧) .

أما في «اعتراض غزة» فاليهود لا يتحملون مسئولية الماضي، بل العرب والعالم ككل. ففي مطلع الرواية يقول الأب «شوارتز» لابنه «جاي بلاك»: «في البداية كنت أظن أن الإنجليز والعرب هم أعداء إسرائيل ولكن الآن أعتقد أن العالم كله معاد لإسرائيل» (ص ١٧). ونلمس هنا بوضوح تجسيداً للمفهوم الصهيوني العنصري. وفي مكان آخر يرد على تساؤلات ابنه «أنا لم أنخرط في أعمال عنف مع ولادة إسرائيل، بل صدف أن كنت ذا خبرة بأدوات الحرب واستخدمتها ضد العرب والبريطانيين» (ص ٢٠١).

والحقيقة أن المبررات التي يقدمها الكاتب لتفسير أو تبرير السلوك الإسرائيلي هي مبررات أقرب إلى الدعاية السياسية:

«إسرائيل كل يوم تهاجم. حدودها مسامية، مستوطناتها يُغار عليها. القنابل تنفجر في محلات (السوبر ماركت). الإرهابيون لديهم طائرات. القنابل توضع في حافلات المدارس، الطرقات تلغم.....» (ص ١٨٩).

الشخصيات

في «الطريق إلى عين حارود» الشخصيات محدودة، وهي أساسا الراوي ومحمود، وعدد قليل من الشخصيات الثانوية: ليورا، (الجنرال) المخطوف، و (الجنرال) قائد المنطقة الشمالية. أما في «اعتراض غزة» فالشخصيات عديدة: عربية ويهودية. الشخصيات الرئيسة هي: الراوي، وريبا مزراحي (أو نورا فراج)، وحسين بخارى. أما الشخصيات الثانوية فهي: جيرننغهام والخادمة: ظافرة كوهين، وعتيقة وهي أخت غير شقيقة لنورا، وضابط الموساد: ايلي بوميرانتز، وشوارتز والد الراوي «جاي بلاك»، وجورج تسدال الموظف في البنتاجون، و «ستوس» العالم الألماني و «ماركو» الكوبي والدكتور غسان حفيظ.

إذن يمكن القول إن هناك شخصيات عربية ويهودية تتمحور حولها الأحداث في الروايتين، فكيف تم تصوير تلك الشخصيات في كل من الروايتين؟

كما هو الحال في الروايات الصهيونية فإن العربي في «الطريق إلى حارود» يحتل مكانة متدنية، ويلعب دور التابع الساذج، بينما يلعب الراوي اليهودي دور الموّجه، صاحب المبادرات، والمفكر الذي يوجه أوامره، أو على الأقل نصائحه. الراوي يحمل مسدسا ومحمود لا يجد غير الاستسلام. الراوي يعرف وجهته (عين حارود) بينما محمود هائم على وجهه. عناد محمود يجبر الراوي على حمله على المشي بقوة المسدس، «ظل طول الطريق يمشي ومحمود أمامه، لم ينظر خلفه على الإطلاق». إنه في منتهى الذل والاستسلام «كل ما تستطيعه أن تفرض عليَّ بالبندقية.... دائما نجبركم على ضربنا ولا خيار لكم» (ص ٢٦).

ولكن سلوك الراوي وصبره على محمود مع إجباره عند الضرورة، على القيام بما يريده منه بالقوة، يجعل محمود مدينا له: «كنت تستطيع قتلي. أنا مدين لك بواحدة» (ص ٣١).

عندما يختطفان السيارة العسكرية ويقتحمان الثكنة معا، يبقى محمود مجرد سائق للسيارة، فيما يتولى الراوي توجيه الأوامر وإدارة المفاوضات مع الجيش بينما يبقى محمود خارج المعركة، وهو المهزوم من البداية:

الراوي: إنها ليست معركتك.
محمود: لا بأس إنك تقتل جماعتك.
الراوي: لماذا لم تقاتل؟
محمود: قاتلت وخسرت.
الراوي: أنت لم تقاتل، لقد خسرت قبل أن تولد.
محمود: هذا صحيح (ص ٤٩).

عدا عن ذلك يتصف محمود بالنفاق والانحطاط الأخلاقي. كان يغير اسمه بين اليهود فيعرفونه في «ناتانيا» باسم «رافي». وقد كان يرتكب الشذوذ الجنسي مع النساء اليهوديات هناك. يقرعه الراوي: «أنت لا محمود ولا رافي. أنت إنسان نتن لأنك لست نفسك. أنت ..... لا أريد أن أرى ..... مثلك». يبكي محمود ويقول: «هل تعتقد أني لا أعلم أني..... هل تعتقد أنني كنت فخورا بما أفعل. كنت أشعر أنني أنا الذي.....» (ص ٢٨).

هناك إشارة إلى عرب آخرين غير محمود، ولكن ليسوا أحسن صفات منه.

وقد وردت الإشارة على لسان (الجنرال) الذي قال للراوي:

«كلفنا بمهمة في الأراضي السورية، ووقعنا أسرى، رفضنا إعطاء معلومات، فقتل السوريون الأسرى واحدا واحدا حتى بقينا اثنين. تكلمنا وأعطيناهم كل المعلومات التي أرادوها. وقبل إطلاق سراحنا جاءوا بمجموعة أشرار واغتصبونا» (ص ٧١).

لقد فعل اليهود مثل ذلك، فقد روى الجنرال:

«اعتقلنا مجموعة مخربين. قتلنا واحدا فبدأ الأربعة الآخرون الكلام. قتلناهم جميعا» (ص ٧٢).

ولكن لاحظ الفرق في تعليق (الجنرال) على قتل العرب «لو وصل الأمر إلى هيئة الأركان لشكلت محكمة عرفية، وتأنيب رسمي وإنزال درجة. نقطة سوداء في سجلنا» (ص ٧٢).

هكذا يبدو قتل العرب حادثة فردية وليس سياسة رسمية . وفي إطار التعادل الذي يقيمه الكاتب بين الضحيّة والجلاد، نجده يعرض أفكارا ليهود لا تقل لا معقولية عن أفكار العرب، وصفات لا تقل سوءا . (الجنرال) مثلا يعد بإرسال محمود إلى مكة، كما أرسل غيره من العرب إلى هناك «يركبون الجمال ويغنون، وسوف نرسل (البلدوزرات) إلى القرى. وفي شهر أو اثنين لا يبقى لها أثر» .

ويتساءل (الجنرال) بعد اقتراحه قتل محمود «لماذا نعتني بهم ؟ السجون مليئة بهم وهم يزدادون سمنة» (ص ٤٥) . ويكرر الشعار الصهيوني «العربي الجيد عربي ميت. اليهودي السيء يهودي ميت» (ص ٩٢). وإذا كان محمود قد ارتكب الشذوذ الجنسي فإن الجنرال لم يتوان عن عمل ما هو أقبح بالنساء العربيات.

يظهر الراوي تعاطفه مع محمود «الذي لم يعش طفولة» . وهو بدون الراوي لا يملك حظا للنجاة : «إذا كان من الصعب على شخص مثلي أن يتحرك على الطرقات فالأمر أصعب مئات المرات بالنسبة إليه، وإذا كانوا يقتلون أمثالي ، فماذا عساهم يفعلون بمثله» .

وبعد مقتل محمود يتحول هذا التعاطف إلى ألم وحسرة يدفعان الراوي إلى اتخاذ قرار بالانتقام لمقتله، لأن قتل محمود كان ضربة قوية لحلم الراوي بتعاون عربي يهودي لإقامة مجتمع جديد في (عين حارود) حيث يختفي الصراع بين الطرفين :

«قادني إلى عين حارود ، ولم أقده إلى مكان . لم أفكر في سؤاله : أين يريد الذهاب ؟ ولكن عندما اتجهنا إلى عين حارود كان نصب عينيه مكان آخر لكنه لم يخبرني، وباستثناء كلمات بسيطة تبادلناها لم نقل كثيرا لبعضنا . . . . . .

والآن الوقت متأخر جدا. لقد فكرت أنه عندما نصل إلى عين حارود فستختلف مواجهتنا لبعض. ظننت أن عين حارود ستبقى والكل سيختفي. ولكن بعد موت محمود من سيحمل الرسالة تعالوا إلى عين حارود أينما كنتم. «لن أغفر موت محمود. سوف أنتقم له، لا لأنني يد القدر وسيف الانتقام وحامي الشرف، لا بسبب الصداقة. . . بل لسبب واحد، انني بدون ذلك لن أصل إلى عين حارود لهذا تحولت إلى سيف» .

أما في «اعتراض غزة» فالشخصية العربية الرئيسة «حسين بخارى» شخصية منفرة لا تثير أدنى تعاطف. فمع بداية أحداث الرواية قتل بخارى ثرياً عربياً يدعى «أحمد» في باريس، ومثل به، ثم لحس أصابعه الملطخة بالدماء الحارة وقال : الحمد لله» (ص ٢٢). ويستمر الكاتب في رسم هذه الشخصية المنفرة السادية التي تقوم بقتل جميع المتعاونين معها بدءا بـ «جورج تسدال» الموظف الأمريكي المسكين في البنتاجون، الذي قبل الرشوة من «الكرمل» لمعالجة زوجه، مقابل تسليم صورة الوثيقة

الخاصة بتوزيع القنابل النيوترونية في أوربا، وانتهاء بـ «ستوس» العالم الألماني النازي الذي نفذ الجانب الفني من العملية، ومرورا بالدكتور غسان حفيظ الذي نفذ عملية قتل «تسدال» .

ولدى بخارى كراهية عمياء للعالم الغربي :

«أتطلع إلى اليوم الذي يموت فيه العالم الغربي عندما ندمر حقول النفط العربية ولا نبقى إلا ما يلزم لتلبية الحاجات العربية. عندها يتعلم المسيحيون كيف يعيشون في الجزيرة العربية، سيصبح المسيحيون متسولين جدداً يعيشون على التبرعات العربية الخيرية» .

الغريب أن (المونولوج) السابق يظهر بخارى وكأنه مسلم متطرف ذو منطلق طائفي. وهي صفة تتناقض مع صفات أخرى، سوف يذكرها المؤلف «بخارى» الماركسي الذي يسخر من الإسلام والأديان كافة .

و «بخارى» لا يبالي إلا بالقيادة ولا يتقن سوى إصدار الأوامر «أنا الذي أعطي الأوامر متى أشاء». أما الأمور الفنية فلا يفقه فيها شيئا. لقد كان يتركها لـ «ماركو» الكوبي الذي أقسم ألا يعمل مع العرب ثانية :

«لقد كان الأفارقة سيئين بما فيه الكفاية. إلا أن العرب طبقة قائمة بذاتها من التخلف والجهل وعدم الانضباط والجبن. لقد كانوا يتقيأوون أحشاءهم في البحر حتى وهو في أهدأ الحالات» (ص ٨٤) وهو لا يهتم بالوقت ولا بصيانة المركب. وعندما رآه «ماركو» يتفحص أحد الأسلحة قال «ربما ظنها سحرا» (ص ٢٩٤) .

وكثيرا ما اختلف بخارى مع «ستوس» العالم النازي لأن الأول يريد إصدار الأوامر دون فهم لطبيعة العملية بينما الثاني يرفض ذلك لأن أي خطأ سيودي بهم جميعا. وكثيرا ما هدد بإعادة أجرته البالغة مليون دولار إلى بخارى ويتخلى عن العملية إذا استمر هذا في تدخلاته. وقد انكفأ على نفسه يؤنبها :

«وهكذا كان عليَّ أن أتعامل مع هؤلاء البدو السياسيين الذين لا يضعون الغد في حسابهم ، لأعدّهم لإحراز نصر لا يستحقونه، ولا يستطيعون تحقيقه بدون خبرتي ومساعدتي» (ص ١١٢) .

هذه الشخصية العجيبة غير السوّية ذات التصرفات الشاذة هي نتاج الظروف الغريبة التي أحاطت بنشأة صاحبها، فقد ولد «بخارى» سفاحا في تبريز بإيران عام ١٩٤٥ لأب جندي وأم مزارعة غير متزوجة ، تلقى تعليما دينيا. وقتل والدته عندما علم أنها ولدته سفاحا ، وهرب إلى (خرم شهر) حيث التجأ إلى بعثة تبشيرية مسيحية، إلى أن وصل سن الخامس عشرة. تتلمذ على يد صانع بنادق،

طرد بسبب السرقة واللواط، فاتجه إلى استانبول عام ١٩٦٢ حيث عاش في منزل امرأة زوجها عاجز جنسيا. حصل على منحة للدراسة في جامعة أمريكية ولم يحقق نجاحا جيدا .

غادر الولايات المتحدة إلى سوريا بعد أن فشل في الزواج من فتاة أمريكية . اشترك في حرب ١٩٦٧م وأسر ثم أطلق سراحه في إطار عملية تبادل أسرى . انضم إلى حزب البعث، ثم تلقى تدريبا في الاسكندرية في معسكر يديره السوفييت. يساري النزعة ماركسي العقيدة . شبق جنسيا ولا يؤمن بالزواج لأن الزوجة في نظره عاهر شرعية . له علاقات مع عدد من المنظمات الإرهابية العالمية. اشترك في عدد من العمليات الإرهابية وفجر بيتا للأطفال في القاهرة. يستحوذ عليه جنون العظمة، ولكن لا قضية له، ولا يبالي بالتضحية بأقرب معاونيه. تسيطر عليه عقدة ميلاده غير الشرعي وأصله الريفي. يكره العالم الصناعي لأنه لا يستطيع المنافسة فيه (ص ٣٣ ـ ٣٧) .

في مقابل هذه الشخصية (العربية) المنفرة، نجد شخصية الراوي «جاي بلاك» الذي يمثل الشخصية اليهودية خارج الأرض المحتلة. وكما هي العادة في الروايات الصهيونية، فالشخصية اليهودية فيها تمثل العصمة والمثالية والبطولة. الراوي مرتبط بإسرائيل ارتباطا مبدئيا. ولم يمنعه الثراء والانغماس في العمل من أداء الواجب، ولم يتردد في القيام بكل ما كلفه به الموساد، رغم أنه تعرض للموت غير مرة بسبب ذلك .

وكانت مثاليته امتداداً لمثالية أبيه الذي سبق أن حارب مع اليهود لإقامة الدولة اليهودية عام ١٩٤٨، واستمر مرتبطا بالموساد، وقد أصر على حضور الاحتفالات الخاصة بذكرى قيام الدولة رغم علمه بخطر الهجوم الذي كانت تخطط له «الكرمل» .

ولا يوازي هذه المثالية سوى مثالية رئيس الوزراء الذي أصر على إقامة الاحتفالات في موعدها والظهور فيها رغم الخطر المحدق. وكان حزينا عندما أمر وزير الدفاع بتنفيذ خطة الانتقام .

أما الشخصيات اليهودية الأخرى فهم ضباط الموساد الذي يتفانون في عملهم ويتقنونه. وهم يقومون أحيانا بأعمال قذرة، كالتعذيب والاغتصاب، إلا أن الكاتب يجد لهم المبررات، فعلى سبيل المثال عندما يتحدث عن الضابط «بومبرانتز» الذي لا رحمة في داخله ولا عاطفة إنسانية نجده يبرر ذلك بأن «الوحوش العربية اغتصبت أمه وأخته وعذبت والده وحرقتهم أحياء. إنه الوحيد الذي نجا من الأسرة ولذلك جعل مهمته في الحياة الانتقام من العرب» (ص ١٥٥) .

وقد فسح الكاتب المجال قليلا (بضع فقرات في الرواية بأكملها) لتصوير بعض التصرفات التي تشذ عن المثالية اليهودية فقد تحدثت «نورا» عن السبب الذي جعلها تنضم للعمل الفدائي :

«جاء خمسة يهود في الليل بسكاكين وبنادق. حيوانات متوحشة غير حليقة. اغتصبوني واغتصبوا أمي وشقيقتي. ظنوني مت فتركوني وعندما استيقظت وجدت نفسي كدمية ملقاة على حافة الخيمة.

تذكرت أن أمي خبأت سكينا ذات يوم. التقطتها وغرزتها في رقبة الخنزير اليهودي الذي كان لا يزال يغتصب أمي، وأخيرا تركت الخيمة وهربت» (ص ٢٣٢). ولكن العرب لم يكونوا أقل وحشية، فعندما استنجدت «نورا» بهم هبت مجموعة منهم لنجدتها وشجعوها على التمثيل بجثة اليهودي الذي قتلته، كما قاموا بدفن اليهود الأربعة الآخرين أحياء في الرمل الحار.

ونورا هذه من الشخصيات الرئيسة الجديرة بالاهتمام إنها نصف عربية (الأب يهودي والأم عربية). وقد حظيت باحترام الراوي وتعاطفه رغم أنها كادت تتسبب في قتله. ولكنه ظل يحبها حتى بعد ذلك وحاول إقناع نفسه أنها «مقاتلة صاحبة قضية وليست مجرد إرهابية».

ربما كانت شخصية نورا أو «ريبا» (يهودية الأب عربية الأم) إرهاصاً بحلم الراوي «بانصهار سامي» في المستقبل وقد كانت ممزقة إذ :

«اكتشفت ذكاء شعب أبيها الذي لم تعرفه أبدا، وشعرت بجاذبية نحوه، ولكنها رفضت ذلك بسبب الظلم الذي نجم عن التقسيم والمعاناة التي عاناها الفلسطينيون الذين طردوا من أراضيهم، وكلما شعرت بتعاطف مع يهودي تذكرت الليلة التي اعتدوا عليها فيها» (ص ٢٤٤).

وهي ليست ممتعضة من اليهود فحسب، بل ومن الغرب عموما الذي تجاهل دور العرب في الحضارة الإنسانية، ولم يعد يتذكر سوى الجمال والنفط.

إنها الشخصية العربية الوحيدة التي تحظى باحترام القارىء، ولذلك لم يشأ الكاتب أن يجعلها عربية خالصة بل نصف عربية. وربما حمل ذلك إيحاء بأن الجانب اليهودي فيها هو الذي جعلها ترفض الظلم إلى درجة محاربته. وكان يمكن أن تكون في المعسكر اليهودي لولا الظلم والتجربة الشخصية المرة التي مرّت بها. خلاصة القول أنها شخصية تستحق الاحترام لأنها رفضت الظلم، وتستحق التعاطف لأنها مرت بتجربة مريرة.

أما الشخصيات الأخرى غير العربية وغير اليهودية فهي ليست أفضل من الشخصيات العربية، فالألماني النازي لا قضية له ولا هدف سوى المال الذي حصل عليه من بخارى ليذهب إلى الأرجنتين حيث يحلم بحياة هانئة في قصر في سهول البمباس، وحيث يمكن أن يستمتع لأول مرة بـ (المرأة والأطفال والمزارع والطعام الجيد والشراب)، ولذلك فهو على استعداد لـ «تدمير مدينة عربية لو عرض عليه اليهود ذلك مقابل المال» (ص ١١٧).

أما الكوبيون فهم (مرتزقة عملوا مع الأفارقة كما مع العرب) أما البلجيكيون فهم جبناء والأمريكيون منافقون انتهازيون.

وهكذا تنسجم الرواية مع الخط السائد في الروايات الصهيونية لتأكيد المفهوم الصهيوني

العنصري، حيث تتعرض كل شعوب الأرض للتحقير بدرجات متفاوتة ليبقى اليهود هم المعصومون المثاليون .

الجوانب الفنية

في كلتا الروايتين نجد أنفسنا دائما في مواجهة الراوي (الكاتب) الذي يسيطر طابع شخصيته على أحداث الرواية من البداية حتى النهاية. إنه أكثر وعيا من بقية الشخصيات وأشمل ثقافة منها وأعظم إدراكا للأمور وإحاطة بالأحداث والظروف. إنه يقدم الشخصيات ويحدد معالمها والمحيط الذي تتحرك فيه، كما يفرض تعليقاته واستنتاجاته ويجعل من نفسه المحور الذي تدور حوله الأحداث وتتبعه الشخصيات، فهو يصف ويعلق ويلفت الانتباه والانظار إلى الدلالات المختلفة للتطورات، ويتوغل في باطن الشخصيات الأخرى لينقل إلينا ما يعتمل داخلها، ثم يقرر ويصدر أحكامه. حتى عندما يفسح المجال للحوار والحوار الداخلي (المونولوج أو المناجاة) فإنه يقيد ذلك طبقا لرؤيته الخاصة. إنه الشخصية الرئيسة التي تظل حية حتى النهاية بعد أن تقتل الشخصيات الأخرى واحدة تلو الأخرى. إنها شخصية متفوقة ولكنها في «اعتراض غزة» تصل درجة التضخم وتتسم بالعصمة والمثالية، بينما هي في «الطريق إلى عين حارود»، رغم تفوقها، أقل تضخما، كما أنها قلقة محاصرة بالتساؤلات والشكوك، وليست معصومة أو مثالية .

من ناحية أخرى فإن الراوي في «الطريق إلى عين حارود» قد أقام علاقة مباشرة مع العربي (محمود) تطورت إلى ثقة متبادلة وعمل مشترك للخروج من المأزق، بينما كانت المواجهة والمطاردة هي العلاقة الوحيدة بين الراوي وبخارى (العربي) في «اعتراض غزة» .

وقد فسح «كينان» هامشا لا بأس به للعربي ليعرض قضيته وإن كانت المساحة المخصصة للراوي اليهودي أكبر، كما أن هذا الأخير كان يقاطع مداخلات محمود باستمرار. ولكن الحيز الذي خصص لمحمود كان أوسع مما هو مألوف في الروايات الصهيونية التي تعمد حتى إلى تغييب العربي نهائيا. لقد تقدم «كينان» على كاتب مثل «موشي سميلانسكي» (١٨٧٤ ـ ١٩٥٣) الذي تساءل «ماذا يفعل هؤلاء العرب هنا»؟ بل إنه تقدم على «يزهار سميلانسكي» في رواية «خربة خزعة» وقصة «الأسير» حيث يستدر عطف القارىء على الأسير العربي بسبب سذاجته لا بسبب حقوقه أو عدالة قضيته. أما «كينان» فإنه يقود القارىء إلى قناعة يرفضها أو يرفض الاعتراف بها كثير من الصهاينة، وهي أن العربي موجود وله حقوق وطنية، وأن تعاونه مطلوب وأساسي للخروج من المأزق. مع ذلك تظل شخصية محمود تتسم بالسذاجة وعدم المبادرة والخضوع للراوي اليهودي .

وهذه الصفات يتسم بها العربي في كل الروايات الصهيونية تقريبا، حتى التي يظهر كتابها تعاطفا مع العرب. في رواية «على حد رصاصة» للكاتب «يستحق اورباز» يرمي العربي بندقيته ويبدأ بالتوسل إلى الجندي الإسرائيلي ويصل به الأمر إلى تقبيل قدميه. ورغم أنه كان يغض النظر عنه ليهرب فإنه «ظل يسير ملاصقا لي» وكذلك في قصة «السباق» لـ «بنيامين تموز» يتخلى عبد الكريم عن الحرب

والسباحة في البركة للجندي الإسرائيلي. وفي قصته «خريف أخضر» لـ «ناتان شاحم» يجد الراوي اليهودي صعوبة في منع الأسير من تقبيل يده، وقد نفذ كل ما أمره به «وكان يعود في كل مرة كالكلب العائد إلى كوخه» .

في المقابل فإن الشخصيات العربية الرئيسة والثانوية (باستثناء «نورا» نصف العربية) في اعتراض غزة هي شخصيات مجرمة سادية لا تثير أي تعاطف معها. لقد قدمها الكاتب من البداية بمجموعة صفات أفقدتها ملامحها الإنسانية وهيأتها للأحكام القاسية من الكاتب والقارىء. وهكذا تصبح النقيض المباشر للشخصيات اليهودية التي تثير الاحترام والإعجاب لا مجرد التعاطف .

من ناحية ثانية فإن شخصية محمود رغم أنها سلبية ضائعة فإنه يمكن العثور عليها بين العرب، من غير تعميم. فإن المرء يحتاج إلى قدر كبير من معاداة الحقيقة ليصدق بوجود شخصية «بخارى» الشاذة العجيبة .

ومع إن الشخصيات العربية تقتل في الروايتين، فإن مقتل محمود يثير الأسى والألم بينما مقتل «بخارى» يثير الارتياح. ولأول مرة يظهر راوٍ يهودي (في الطريق إلى عين حارود) ، استعداده للانتقام لمقتل عربي. لقد قدمت بعض الروايات الصهيونية شخصيات يهودية تشعر بالألم لمقتل العرب، ولكن لم يحصل أبدا أن أبدى أحد منهم استعداده للانتقام لذلك. على سبيل المثال، عندما يقتل الأسير العربي في رواية «على حد رصاصة» للكاتب «يستحق اورباز» كان موقف الراوي اليهودي أن «ودع قبره مطيلا النظر إليه وكأنه يحاول أن يعتذر إليه من تقصيره تجاهه». كذلك شعر الراوي في قصة «السباق» لـ «بينامين تموز» بالأسى لمقتل «عبد الكريم» ولكنه لم يفعل شيئا، ولم يفكر بالانتقام .

وكما هو ملاحظ فالأغلب أن تقتل الشخصيات العربية في الروايات والقصص الصهيونية. وفي معظم الحالات لا يعرف القاتل وكأن الهدف من وراء ذلك الايحاء بأن هناك قوة ما لا تريد للعلاقة بين العرب واليهود أن تتطور وبذلك يتنصل الراوي من مسئوليته .

أما في «اعتراض غزة» فالراوي يشارك مباشرة في عملية المطاردة والقتل .

هذا وتنوعت أساليب التعبير في «الطريق إلى عين حارود» ما بين الحوار والحوار الداخلي (المناجاة) والادراك المتأخر hindsight والارتجاع الفني (الاسترداد الزمني) flash back ، بينما كان السرد والوصف والتقرير محدودا. أما في «اعتراض غزة» فقد اتسعت مساحة السرد والتعليق على حساب الأساليب الأخرى. وربما يعزى ذلك إلى حجم الروايتين، فالرواية الثانية أوسع حجما من الأولى بكثير .

ورواية «كينان» أكثر تماسكا من الناحية الفنية. هناك تكثيف. محور واحد تدور حوله الأحداث وتتحرك من خلالها الشخصيات. وقد قلّت الإضافات التقريرية التي تدمر التفاعل بين الشخصية والحدث وبين القارىء والرواية، كما أن المدى الزماني والمكاني محدود لا يشتت وحدة العمل أو يقلل من

تأثيره. أما «هنت» فقد عمد إلى الإطناب وسَرْدِ كثير من التفاصيل التي لا تتضمن دلالات فنية ولا علاقة لها بتطور الحدث أو بتكوين الشخصية .

إن كثيرا من التفاصيل تعترض تدفق الرواية وتحوّل انتباه القارىء. ربما يفيد هذا الأسلوب الكاتب باتاحة الفرصة له أحيانا لتغيير الموضوع عندما يرغب، ولكن عندما يصل ذلك درجة المبالغة فإنه لا يخدم الرواية بل قد يصرف القارىء عن المتابعة، إذ يشعر أنه بحاجة إلى العودة إلى فصول سابقة، وربما أدى به ذلك إلى تجاوز العديد من الصفحات ليصل إلى النهاية .

ولذلك بينما استطاع «كينان» أن يحتفظ بشخصياته إلى ما قبل النهاية بقليل، فإن معظم شخصيات «اعتراض غزة» قد تساقطت في الطريق ولم يترك إلا لقليل منها الفرصة لتنمو وتتطور.

من ناحية الصدق الفني فقد استخدم كل من الكاتبين قدرا كبيرا من الأسماء والكلمات العربية والعبرية لإثبات صدقها. ولكن يمكن القول إن هذا المعيار يتوفر للرواية الأولى أكثر من الثانية. والصدق الفني ليس نقلا حرفيا للواقع، فمن حق الكاتب أن ينتقي ويختار على أن تقدم الرواية بشكل معقول، ويختار ما يمكن حدوثه دون أن يوصف بالاستحالة أو عدم المعقولية. إن افتقار «اعتراض غزة» للصدق الفني مردّه إلى كون شخصياتها غير مقنعة، فهي إما بيضاء أو سوداء، مع أن الشخصية الإنسانية أكثر ثراء من أن توضع في قالب جامد تحدده مجموعة من الصفات الجامدة المثالية .

الهوامش

(١) صدرت هذه الرواية بالعبرية عام ١٩٨٤م ثم ترجمت إلى الإنجليزية وصدرت عن دار «الساقي» بلندن في مارس ١٩٨٦م .

المراجع العربية

بهاء الدين، أحمد — **إسرائيليات**، القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٥ .

حنورة، مصري — **الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية**، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨ .

الراهب، هاني — **الشخصية اليهودية في الرواية الإنجليزية**، بيروت: مركز الأبحاث، ١٩٧٤ .

كنفاني، غسان — **في الأدب الصهيوني**، بيروت: مركز الأبحاث، ١٩٦٧ .

مزعل، غانم — **الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث**، عمان : دار الجليل، ١٩٨٦ .

المراجع الأجنبية

Gover, Yeach — "Ideological Impositions on Israeli Literature", **Journal of Palestine Studies,** Vol. XVI, No. 1, Autum 1986.

Hunt, E. Howard — **The Gaza Intercept,** New York, Stein and Day Publisher, 1981.

Kenan, Amos, — **The Road to Ein Harod,** (Translated by: M. Hutzpit, London, Al-Saqi Books, 1986.